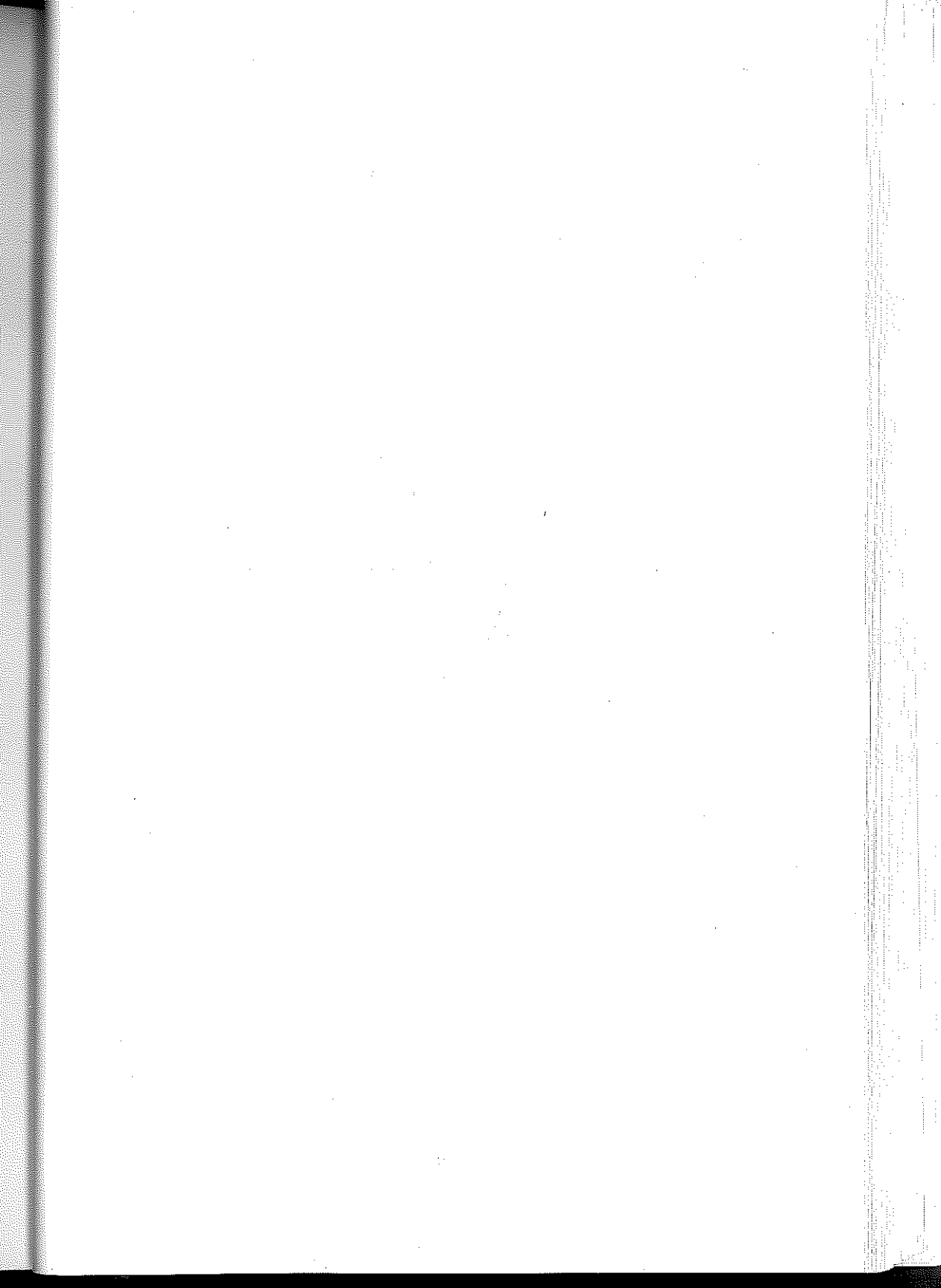


الفصل
الثاني



الاتجاهات المختلفة في الاتصال الجماهيري

كل مجتمع إنساني يرتبط، وبشكل مستقل عن درجة تطوره، بنظامه الاتصالي. وهو يسمح لأعضائه بالحياة معاً وبإبقاء أو تغيير قواعده كما يعينهم على السيطرة على بيئتهم.

لهذا ليس مستغرباً أن يمثل الاتصال بين الكائنات الانسانية ومنذ القدم موضوعاً لتأمل المثقفين. مع ذلك فهو لم يكن إلا في قليل من الوقت موضوعاً لبحث العلماء واستقصائهم. لكنه أخذ، ومنذ بداية هذا القرن، يثير اهتمام علماء الإنسان والنفس والسياسة والإجتماع.

إن دخول وسائل الاتصال عمل على تغيير عملية الاتصال القائمة بين الأفراد. وأبدى عدد كبير من الباحثين اهتمامهم إلى التغيرات الجارية وعمدوا إلى إعداد نظريات أصولية يمكن ان تفيد كأداة في فهم عملية الاتصال. وحاولت عدة اتجاهات نظرية أن تبين كيف يمكن للاتصال الجماهيري إعادة بناء النظم الثقافية والاجتماعية والقواعد والرموز الموجودة في المجتمع وكذلك لغته والعلاقات بين أفراده.

الإتجاهات النظرية

اتجاهات اخرى	نقدي	وظيفي
الحتمية التقنية	مدرسة فرانكفورت	
الحلزونية للصمت	اقتصاد سياسي	
نظرية الثقافة	تسلطي	
	ثقافي	

إن النظريات المقترحة عديدة إلى حد أنه يبدو من المستحيل أو من غير المفيد تعدادها. كما أنه ليس لها جميعاً ذات القيمة حيث نجد بعضها أصبح أكثر أهمية من بعضها الآخر. ومع ذلك فإن لكل منها قيمتها. وما يجدر قوله أنه لا توجد في دراسة الاتصال الجماهيري نظرية «كلية القدرة». إن كل الإتجاهات النظرية تعني هذا الحقل من البحث كما أن الحوارات التي تنبئها تبقى في حال فورة واندفاع.

النظرية الوظيفية: Fonctionnaliste

تهتم النظرية الوظيفية بنتائج الظواهر الإجتماعية. وهي تركز على حاجات مجتمع ما مأخوذاً كمجموعة من الأجزاء المترابطة والذي تشكل فيه وسائل الاتصال جزءاً من الأجزاء التي يساعد الواحد منها الكل. وإذا ما طبقت هذه الحاجات المفترضة على الاتصال الجماهيري، فإن لها وشائج أكيدة مع الاستمرارية، النظام، التماسك، الدوافع والتكيف.

إن وسائل الاتصال وعمليات الاتصال الجماهيري هي أفعال متكررة في المنظومة الإجتماعية للمجتمع الذي تعمل فيه. والتبعية البنوية الموجودة بين وسائل الاتصال والمنظومات الأخرى لا تؤثر على المجتمع فقط ولكن تؤثر أيضاً على الطريقة التي يستخدم بها الأفراد وسائل الاتصال، ومعنى آخر، لها نتائج أكيدة على المجتمع برمته.

تغتذي النظرية الوظيفية في الاتصال الجماهيري من المفاهيم التي افترضها «ر. ميرتون R.Merton» ولكنها انتشرت إنطلاقاً من شروحات «شارل رايت Charles Wright»

الذي يستند «ميثاقه الوظيفي» إلى نظرية «لا سويل» Lasswell.

يجب ألا تستنبط النتائج الاجتماعية للاتصال الجماهيري، وفقاً لرأي ميرتون من نواياها الظاهرة، بل يجب أن نميز، كما يؤكد إلحاح، بين النتائج المهمة (الوظائف) للفعاليات الاجتماعية وبين الأهداف المتوخاة إذ يمكن ألا يتطابق الاثنان. وبمعنى آخر ليست وظائف الاتصال الجماهيري هي ما يريد الإعلاميون الحصول عليه.

هكذا يمكن الحملة صحية محلية أن تلجأ إلى وسائل الاتصال لتشجيع الأهلين للذهاب إلى المستوصف لإجراء بعض الفحوصات الطبية. هذا هو هدف الحملة... ولكن الحملة ترتب وهي تسعى لتحقيق هذا الهدف، آثاراً مدهشة وغير متوقعة. خاصة، وهذا ما أكدته البحوث، تحسين صورة مستخدمي الصحة المحلية في أعين الجمهور.

هؤلاء المستخدمون الذين أصبح عملهم اليومي (بفضل وسائل الاتصال) في مركز اهتمام الناس. وهذا التحسن في هبة العاملين أدى إلى تعاون أفضل وإدارة أبحج للصحة العامة. وكانت تلك نتيجة هامة ولكن غير متوقعة للحملة الدعائية. ويدعو ميرتون النتائج المقصودة «الظاهرة» وتلك غير المقصودة «الكامنة» وهو يميز في تفسيره الوظيفي بين النتائج المفيدة لاستمرارية المنظومة وحسن سيرها وبين تلك التي تعيق التكيف معها. تسمى النتائج الأولى «وظائف» «Fonctions» والثانية «وظائف مضادة» «dyfonctions»⁵. هكذا فإن الحملة الدعائية مثار البحث يمكنها أن تخيف بعض الأشخاص وتدفعهم إلى عدم الذهاب لإجراء الفحوصات المطلوبة. ويحذر «رايت Wright» من أشراك الوظيفية. فهو يرى أولاً أنه يجب أن نتجنب تحليل أي فعل ممكن للاتصال الجماهيري انطلاقاً من مفهوم «وظيفة» و«وظيفة مضادة».

إن الأكثر فائدة من ذلك هو قصر التحليل الوظيفي على النتائج التي تبدو هامة على

⁵ - لا تفصل المؤلفة في التعريف بالوظيفية على اعتبار أن ذلك يخرج عن مهام هذا البحث، وأن القاريء ملّم بما تناوله الوظيفية من قضايا وتثيره من إشكاليات. ويمكن للطالب الإطلاع على هذه القضايا بالعودة إلى بعض المؤلفات المتعلقة بذلك. كي يتمكن من التعامل مع ما تقدمه المؤلفة بصورة إيجابية. المترجم.

استمرارية (و - أو) لا استمرارية المجتمع والثقافة. وهو ينصح، ثانياً، بأن لا نخلط بين كلمة وظيفي ووظيفي - مضاد وبين أفكارنا الشخصية حول الخير والشر. وليس على الباحث أن يستحسن تأثيرات الاتصال الجماهيري والتي يفسرها على أنها وظيفية للمجتمع. إن التفضيل الايديولوجي يجب ألا يتدخل في تحليل الوقائع. ومفهوم «وظيفي» يعني أن الممارسة المقصودة تسهم في تقوية واستمرار المجتمع الذي ندرسه (انظر نقد الوظيفية لـ ك.دافي K.Davies في هـ. مندراس 1990، عناصر علم الاجتماع نصوص U2 أرماس كولان).

وإذا لم ننس هاتين الملاحظتين كما يقترح رايت، فستكون البنية الوظيفية مرشداً ثميناً في تحليل النتائج الممكنة للاتصال الجماهيري.

ويميز لاسويل Lasswell أحد رواد البحث في الاتصال الجماهيري بين ثلاث وظائف أساسية للاتصال: وهي مراقبة المحيط، إقامة العلاقات بين أجزاء المجتمع في استجابتهم للمحيط، نقل الإرث الاجتماعي من جيل لآخر. ويكمل «رايت» هذه الوظائف الثلاث بوظيفة رابعة هي التسلية.

ينطوي مفهوم المراقبة على تجميع المعلومات الخاصة بالحوادث التي تدور في المحيط الداخلي والخارجي لمجتمع معين وتوزيعها. وهذه العملية تقابل ما يدعى، بوجه عام، بمعالجة المعلومات. مع ذلك فإن ما تجدر ملاحظته هو أن معالجة المعلومات كعملية اجتماعية تتجاوز مجرد جمع الوقائع وتوزيعها.

أما إقامة العلاقات فتقابل تفسير المعلومات المستخلصة عن الواقع وتوصيف سلوك الإنسان للتكيف مع الحوادث المنقولة. ويعتبر هذا النوع من العمليات كجزء من عمل كاتب الافتتاحية. وعلى الرغم من هذا التمييز، يصعب في بعض الأحيان، تحديد الفواصل بينهما.

وتفيد الفعالية الثالثة، نقل الإرث الاجتماعي، في تمثل الناس الأحياء في مجتمع معين لقيم

هذا المجتمع الذي يختزن ويوصل قيمه ومعاييريه الاجتماعية ومعارفه من جيل لآخر. ويكمل «رايت» هذا التعريف الذي قدمه «لاساويل» بالظاهرة المدعوة عملية التنشئة الاجتماعية التي تتضمن استبطان الأطفال واليافعين لمختلف الأدوار الاجتماعية - يضاف إلى هذه الوظائف الثلاث، وظيفة التسلية التي ليست بحاجة إلى شرح.

هذه الوظائف الثلاث هي بمثابة أبعاد ذات قيمة تحليلية فقط. وكل حالة يمكن أن تحلل تبعاً لبعد واحد أو لأبعاد أربعة. كما يمكن أن ندرس بدقة المعلومات المقدمة في التلفزيون سواء من وجهة نظر المراقبة أو من وجهة نظر الفعاليات الثلاث الأخرى.

إن حرفاً من الثلج يعرض في التلفزيون يمكن أن يدرك من زاوية المراقبة، أي تقدير الموقف، الاحتياطات اللازم اتخاذها والمتعلقة بإقامة العلاقات (عدم ممارسة رياضة التزلج خارج المضمار). كما يمكن أن يستند إلى المعايير الاجتماعية (الناس مسؤولون عن حماية أنفسهم). أما طبيعة الحدث «المسلية» فإنها تتعلق بالجانب المحزن منه (كل الناس يتحدثون عن الموضوع ويروون النوادر حوله... الخ).

لنلاحظ الآن الأهمية التي يوليها الأفراد لمسألة الحصول على تيار دائم من المعلومات. (هنالك وظيفة رئيسية تكمن في تنبيه الناس إلى بعض المخاطر الآتية (هزة أرضية، أو هجوم عسكري على سبيل المثال)، حيث بإمكان الناس المتنبهين أن يحموا أنفسهم من الكوارث المشار إليها. يضاف إلى ذلك، وبالنظر إلى أن الاتصال الجماهيري هو اتصال عام، فإن لكل امرئ طريقاً إلى هذا الاتصال. ويمكن للتنبيه المعلن عنه بهذه الصيغة أن يقوم بوظيفة التكامل والانسجام بين أفراد المجتمع.

إن النتيجة الثانية للاتصال هي إسهامه في تلبية الحاجات اليومية للمجتمع. وقد استطاع بيرلسون Berelson عام 1954 مستفيداً من إضراب إحدى الصحف في نيويورك أن يدرس ما افتقده الناس عندما لم يعودوا يستلمون صحيفتهم المعتادة «وهي الأخبار المتعلقة بالأحداث الاعتيادية مثال برامج الراديو والسينما، والحسومات التجارية، الأنباء الجوية... الخ» إن الصحيفة هي أداة لتحقيق وظائف متعددة في الحياة اليومية.

وهناك وظيفتان هامتان للإعلام والاتصال الجماهيري هما «اسباغ الشرعية على الوضع القائم، واحترام المعايير الاجتماعية»

الوظيفة الأولى تقوم على الفكرة التي ترى أن الأنباء التي تتناول الأشخاص أو الجماعات أو الوقائع الاجتماعية الأخرى، تعمل على زيادة هيبتهم في عيون الجمهور لسبب بسيط هو أنها تركز على شخصهم اهتمام الجميع، لهذا من المستحسن للمجتمع في بعض الحالات المحددة اللجوء إلى هذا الإجراء. وهذا صحيح بالنسبة للأفراد والجماعات معاً، إذ بفضل الاهتمام الذي تمنحهم إياه وسائل الاتصال يجدون مكانتهم وقد اكتسبت شرعية أكيدة، كما يجدون هيبتهم ونفوذهم بالقياس إلى الآخرين، غير قابل للنقاش.

وعندما تقدم وسائل الاتصال سلوكاً منحرفاً وتعرض إدانته، فهي تعمل على تقوية الضبط الاجتماعي. والأعمال المنحرفة تكون معروفة عادة من عدد محدود من الأشخاص، إلا أن تقديم هذه الأعمال المنحرفة في وسائل الاتصال يمنحها صبغة عمومية. وفي اللحظة التي تقدم فيها هذه الأعمال عبر وسائل الاتصال، يشعر معظم الناس بأنفسهم، مضطرين لإدانتها. وبهذه العملية تقوم وسائل الاتصال على تدعيم الضبط الاجتماعي، وإكمال الطرق الأخرى الصورية وغير الصورية لتوجيه السلوكات المنحرفة.

ويمكن أن يكون للاتصال الجماهيري وظائف - مضافة للمجتمع وأعضائه. هكذا فإن سبيل الأخبار العالمية من شأنه أن يهدد استقرار مجتمع ما. فالمعلومات حول شروط حياة مثالية وحول العقائد المختلفة في البلدان الأخرى، يمكن أن تقود إلى مقارنات مع الوضع المحلي للمتلقي وتعرضه على التغيير الاجتماعي. كما يمكن للأخبار التي تقدمها وسائل الاتصال أن تزيد هموم الأفراد وخاصة عندما تعرض لهم الأوضاع المتفجرة في العالم دون أن تفسرها الأمور التي يؤدي إلى بث الدعر لدى المستمعين.

هناك الكثير من المعلومات يمكن أن تقود إلى العزلة الإرادية للفرد. فالفرد الذي يجد نفسه غارقاً في بحر المعلومات التي تقدمها وسائل الاتصال، يعتمد إلى الانغلاق على ذاته وفي حدود حياته الخاصة التي يبدو أنه يعاني فيها من عدة أنواع من الضبط كالعائلة وغيرها.

فروق ذلك يمكن للأخبار أن تستدعي الخمول لدى الفرد حيال الفعاليات المدنية. وبالنظر إلى أن الناس يصرفون جزءاً كبيراً من وقتهم في متابعة ما تقدمه وسائل الاتصال، فإنه لا يعود لديهم الوقت أو القدرة الكافية لحل المشكلات الاجتماعية. إن بعض الأفراد الذين يتابعون الأخبار بصورة مكثفة يوحون لنا وكان المواطن المطلع على الأخبار هو مواطن فاعل، بينما يظهر أن الأشخاص الذين يكرسون يوماً ساعة أو أكثر من وقتهم لمتابعة أخبار الصحافة، الراديو أو التلفزيون، ليسوا فاعلين في الحياة المدنية والسياسية.

يمكننا أن نحلل أيضاً الوظائف والوظائف - المضادة للأخبار المنقولة عبر وسائل الاتصال والموجهة لشرائح نوعية من السكان مثل: جماعة عرقية، إحدى الأقليات، العمال، الطلاب، الأشخاص المسنين، جماعة سياسية... الخ. إن الإلتباه الذي تمنحه وسائل الاتصال إلى القادة السياسيين، على سبيل المثال، يمكن أن يضيفي المشروعية على مراكزهم بإعطائهم مقاماً اجتماعياً محددًا. من جانب آخر، إن أخباراً غير خاضعة للرقابة من شأنها أن تهدد السلطة بتقديمها للأحداث بطريقة مناقضة لتصريحات المسؤولين حول مواضيع الرخاء الاقتصادي أو البطالة مثلاً.

وبالنتيجة يمكن دراسة تأثير الاتصال الجماهيري على المنظومة الثقافية للمجتمع بالذات، إذ أن الأخبار المعلنة عن المجتمعات الأخرى وعن ثقافاتهما يمكن أن تغني الثقافة المحلية. ولكن هناك من جهة أخرى من يخشى أن تفقد الثقافة المحلية أحد الوجوه الأساسية لخصوصيتها ولوحدتها عن طريق «غزو ثقافات أخرى».

ومن أجل حصر النتائج غير المرغوبة للمعلومات المقدمة، فإن اختيار وتقويم وتأويل الأحداث يلح على الأهمية النسبية لما يُقدم من برامج أمر ضروري وهذه الاحتياطات تهدف إلى التنبيه للفوضى والاضطراب في صفوف الجمهور التي تسببها الأخبار الواردة من كل حذب. إن سياسة التحرير تحاول من خلال تصنيف الأخبار ضمن أبواب متعددة - أخبار دولية، رياضة، ثقافة الخ - وإعطاء عدد معين من الأسطر إلى الأخبار، أن تقود القارئ وتوجهه. ويمكن أن نعني هذا النوع من ترتيب الأخبار بصورة أفضل عندما لا

يكون هذا الترتيب معداً بشكل مسبق. وقد لاحظنا مجموعة من الباحثين بمناسبة إضراب إحدى الصحف في نيويورك عام 1948 أن ليس الأخبار ما كان ينقص الناس، ولكن ما كان ينقصهم فعلاً هو التعليق على هذه الأخبار. وهذا هو السبب الذي جعل بعض الصحف يقتنع بأهمية مسؤوليته في تقويم وتأويل الأخبار التي يقدمها للقراء أو المشاهدين. وبفضل مثل هذه المعالجة فإن أخباراً «مفسرة بشكل مبالغ فيه» يمكن لها، بدلاً من طمأنة الناس، أن تزيد من قلقهم.

هناك وظيفة - مضادة أخرى ممكنة البروز: حيث نجد بعض الأخبار المتعلقة بالتغيرات الاجتماعية التي تتطلب مساندة وسائل الاتصال ولكنها لا تحصل عليها، بينما هناك أحداث محافظة تحصل على مثل هذه المساندة. من جانب آخر، يخشى بعض رجال الاتصال - مثل الصحفيين - عواقب أعمالهم إذا هم ساندوا بعض القضايا غير الجماهيرية في نظر أرباب عملهم. وهذه العواقب من المحتمل أن تكون اقتصادية أو غير ذلك. وقد كان صرف «ميشيل بولاك»⁶ من العمل في القناة الأولى في التلفزيون الفرنسي عام 1988 واحداً من أمثلة كثيرة. ويعمد بعض الصحفيين بدافع الخذر، إلى تجنب الموضوعات المتنازع عليها أو القيام بأي نقد اجتماعي. وإذا كان الأفراد تابعين كلياً لوسائل الاتصال وللأخبار المعدة مسبقاً، وللآراء المكونة سلفاً، فلن يكونوا قادرين على بناء تفكير فردي. بمعنى الكلمة.

ويعمل الاتصال الجماهيري على تسهيل توحيد المجتمع، ويرفع من درجة انسجامه بتزويده بأساس واسع من المعايير الاجتماعية المشتركة ومن القيم والخبرات المعاشة بين أفرادها. وهذا ما يعين الأفراد على الاندماج في المجتمع عبر تعرضهم لهذه القيم الاجتماعية. وهذا الأمر يبدو مفيداً بشكل خاص - وظيفي - بالنسبة للمهاجرين الراغبين في الاندماج في مجتمعاتهم الجديدة. من جانب آخر يمكن لوسائل الاتصال أن تساعد أيضاً في عملية تنشئة

6 - ميشيل بولاك أحد الإعلاميين الأكثر شهرة في فرنسا والذي كان يعد ويقدم برنامجاً ذا جماهيرية واسعة هو «حق الإجابة» وقد صرف من القناة التلفزيونية الأولى بعد أن أصبحت ملكاً للقطاع الخاص، ونتيجة لعدم مساهمته لأرباحها الجدد. (المترجم)

اليافعين - بالمعنى العام - بتقديم قيم اجتماعية جديدة وتحقيق تغييرات في المعايير الاجتماعية لهم. إضافة إلى أن تقديم الثقافة إلى الجماهير عبر وسائل الاتصال وفي قوالب جامدة، يمكن أن يؤدي إلى فقدان التنوع الاقليمي والعرفي وتثبيط همم الإبداع الثقافي.

ويقدم الاتصال الجماهيري المتعة والتسلية لجميع الناس - والانسراح الذي يقترحه على الجمهور هو أحد وظائفه الخيرة. ولكن يجب ألا ننسى أن كثرة العروض ومشاهد التسلية يمكن أن يحرف انتباه الناس عن الشؤون الاجتماعية المشتركة وعن المشاركة الفعلية في شؤون المجتمع.

كذلك نستطيع أن نعتبر بعض المواقف كوظائف - مضادة عندما يصبح الناس، مثلاً، مجرد تابعين للتسلية التي تقدمها لهم وسائل الاتصال بحيث لا يعودون يشعرون بقيمة أية متعة أخرى، بصورة تجعلهم مستهلكين سلبيين ودائمين لوسائل الاتصال.

هناك بعض الانتقادات التي تلح على أن التسلية التي تقدمها وسائل الاتصال، تغير من طبيعتها ونوعيتها عندما تنقل عبر وسائل الاتصال، كما يفقد المنتج الثقافي المعروض قيمته. كما أن هناك أمراً أكيداً تماماً وهو أن الإرسال يغير من المدلول الاجتماعي للتسلية.

ووسائل الاتصال أثارت تغيراً فعلياً فيما يتعلق بالرياضة: فيفضل التلفزيون يستطيع آلاف الناس حضور حدث رياضي معين. والرياضة كتسلية شعبية، أصبحت تتجه أعداد كبيرة من الناس - وخاصة الشباب - إلى ممارستها هؤلاء الذين تعرفوا إليها من خلال وسائل الاتصال. إضافة إلى أن القيمة الرمزية للرياضة لم تتبدل وإذا أخذنا الألعاب الأولمبية كمثال فنستجد أنها لم تفقد شيئاً من مدلولها السياسي.

الآن، وقد تفحصنا وظائف الاتصال واحدة واحدة، يجب علينا أن نشير إلى أننا لا نستطيع تناوّلها منفصلة بل يجب ربطها معاً. وهنا يرى «رايت» أن الوظائف والوظائف - المضادة - يمكن أن تتوازن فيما بينها. هكذا يمكننا الحديث عن العلاقات المتبادلة بين فعاليات وسيلة اتصال واحدة. وتعتبر هذه الظاهرة بمثابة آلية اجتماعية لكبح ما قد تسببه وسائل

الاتصال من حلال محتمل.

وإذا كنا كرسنا حيزاً هاماً للنظرية الوظيفية فليس الهدف من ذلك تفضيلها على غيرها من النظريات. ولكن لأن هذا الاتجاه لقي صدى واسعاً في أوساط الباحثين - أن التحليل الوظيفي وعلى الرغم من أنه لا سياسي، ينظر إلى الحياة الاجتماعية من زاوية محافظة ويتمعن في وسائل الاتصال كسبيل لتحقيق الاستقرار في المجتمع وليس كمصدر للتغيير - لهذه الأسباب لم تعدم النظرية الوظيفية من ينتقدها. ويصرح جیدن Giddens (1979) في هذا الإطار أن النظرية الوظيفية فقدت مصداقيتها إلى حد يجعلها غير صالحة للتطبيق. ولكن إذا ما استخدمت «كمنهج مؤقت وتوضيح واقعي» (ماكس فير) فإنها تبقى صالحة في دراسة الاتصال الجماهيري، وأخيراً فإن أحد أكبر مزايا هذه النظرية هو أنها لم تكن نظرية مرتبطة بالعواطف.

نظريات الصراع أو النظريات النقدية: Les Theories Critiques

تنطوي النظريات المنضوية تحت عنوان «نظريات الصراع الاجتماعي» أو التي تدعى أيضاً «بالنظريات النقدية» على مجموعة متنوعة من الأفكار المستوحاة من الماركسية. ويقوم الاتصال وفقاً لهذه النظريات بإعادة انتاج الايديولوجية المهيمنة (الرأسمالية). ويرجح المنظرون في تحليلاتهم العامل الاقتصادي أو الايديولوجي (طبقاً للنظرية)، الذي يحدد، كما يرون، نظم وسائل الاتصال.

تضم مدرسة فرانكفورت التي أسسها عام 1923 ماكس هوركهايمر Max Horkheimer بين صفوفها ت - أدورنو T.Adorno، ل.لوينثال L.Lowenthal، ي - فروم E.Fromm، ف - بولوك F.Pollock، هـ. ماركوز H.Marcuse، وهم مجموعة من المفكرين المتأثرين بالماركسية تأثراً واضحاً. وقد اهتم هؤلاء المفكرون بفشل التغيير الاجتماعي الثوري هذا الفشل الذي نسبوه إلى البنية الفوقية للنظام الرأسمالي، وإلى وسائل الاتصال خاصة التي خربت الصيرورة التاريخية للتغيير. وترى هذه النظرية أنه إذا كان التاريخ قد

أخطأ طريقه فإن ذلك يعود إلى أن ايدولوجية الطبقة المهيمنة استطاعت ان تكيف الأساس الاقتصادي عن طريق تخريب الطبقة العاملة وتمثلها لها.

إن ثقافة الجماهير تمثل في نظرهم الوسيلة الممتازة للنجاح الذي حققته الرأسمالية الاحتكارية. كما تنفيذ مجموعة نظم الانتاج الجماهيري - الثروات، الخدمات والأفكار - في تسويق النظام الرأسمالي مع عقلانيته التقنية ونزعتة الاستهلاكية والرضى العام إضافة إلى اسطورة المجتمع الخالي من الطبقات.

يأمل هؤلاء المنظرون النقديون في فضح الحقيقة الخفية لنظام الهيمنة الذي يسير مواربة كما يرون. لأجل ذلك يولي هؤلاء اهتماماً خاصاً لتحليل الأرضية التي يقوم عليها الاتصال. فليس المقصود إذن معرفة كيف يسير نظام ما فقط (كما يفعل التجريبيون) ولكن الأهم هو إداتته من أجل تغييره جذرياً. إنهم يلومون الوظيفيين في أنهم يولون الاتصال أهمية كبرى ويهملون الوسط الذي ينمو فيه. وهذا الاهتلال هو الذي يشوه في نظرهم حقيقة الاتصال في أعينهم. ويستخدم المنظرون النقديون مصطلح «الصناعة الثقافية» ليشيروا إلى مجموع فعاليات الاتصال الجماهيري. حيث يتم تصور التغييرات التقنية (إعادة الانتاج المصنع) والتغييرات الاجتماعية الثقافية التي تنبثق عنها (استهلاك الجماهير للبضاعة الثقافية). كنتائج لتوسيع السوق. إن ولوج الجماهير إلى الصناعة الثقافية لا يفسر على أنه إحدى نتائج المساواة في الشروط الثقافية، وإنما ينظر إلى الثقافة الجماهيرية على العكس من ذلك، على أنها تخريب للديمقراطية. وقد أسمى «ماركوز» هذا المجتمع الذي خلقتة الصناعة الثقافية بالمجتمع «ذي البعد الواحد» وهو لا يرى في تقنيات الاتصال الجماهيري هذه سوى أداة للهيمنة. إن مفهوم الاغتراب مرتبط أيضاً بأحادية البعد هذه. وكما كتب ماركوز «إنني بينت للتو أن مفهوم الاغتراب يصبح إشكالياً عندما يتماهى الأفراد مع وجود فرص عليهم ويجدون فيه تحقيقاً لذواتهم. إن هذا التماهى ليس وهماً ولكنه حقيقة. مع ذلك فإن هذه الحقيقة ذاتها ليست سوى مرحلة متقدمة من الاغتراب، لقد أصبحت ذات طابع موضوعي تماماً فالإنسان المغترب مستغرق داخل وجوده المغترب. لا يوجد هناك سوى بعد

واحد، إنه موجود في كل مكان وتحت مختلف الأشكال» (هربرت ماركرز. الإنسان ذو البعد الواحد 1968 باريس - مينيوي - ص39). والاعتراب هو ما يفسر رواج هذه المنتجات الثقافية لدى الجمهور الذي يحب هذه المنتجات لأنه مغترب خاضع لسيل الرسائل الإعلامية. ووسائل الاتصال هي إحدى العوامل الحاسمة في هيمنة السلطة على الجماهير.

ويهتم ممثل الجيل الثاني في النظرية النقدية جورج هيرمانس Jurgen Hebermans (تلميذ أدورنو) بالوسائل التي تستخدم السلطة عبرها المعارف التقنية والإدارية من أجل إبعاد غالبية المواطنين عن دائرة الشؤون العامة. هذا الإبعاد أدى إلى انكماش «الفضاء العمومي» وإلى هيمنة الصفوة التكنوقراطية. فالفضاء العمومي هو المكان الذي يتحقق فيه التوسط بين الدولة والمجتمع المدني، إنه المكان الذي يتكون فيه ويعبر عن نفسه من خلاله الرأي العام. وفي تحليله الذي كرسه لتطور بنى الفضاء العمومي، اهتم هيرمانس بشروط الهيمنة الواقعية على عملية التأسيس institutionalisation الاجتماعية. إنه يرفض الفكرة التي ترى أن جماعات الضغط، والصفوة التكنوقراطية ووسائل الاتصال بإمكانها أن تصبح بمثابة الصيغة الحديثة للفضاء العمومي. إنه يحاول أن يعد «فضاءً عمومياً» بشروطه الموسمية التي تسمح للأغلبية الكبرى من المواطنين بالمشاركة بالعملية الاتصالية. وما يجدر ذكره أن النظرية النقدية تجدد استمرارياتها في العديد من التيارات الموجودة في أيامنا مثل نظرية الاقتصاد السياسي التي تعطي الأفضلية للعامل الاقتصادي على حساب المضمون الأيديولوجي في تحليل وسائل الاتصال. وبالتحديد أكثر، إنها تؤكد على تبعية الأيديولوجية للأساس الاقتصادي. هكذا فإن المنظرين هنا يركزون اهتمامهم على تحليل بنية حيازة وسائل الاتصال بوجه خاص، وعلى الطريقة التي تعمل بها. وهم يؤكدون على أن وسائل الاتصال يجب أن تعتبر كجزء من المنظومة الاقتصادية والتي ترتبط من خلالها بالمنظومة السياسية. إن الاتصال الجماهيري وفقاً لرؤيتهم وسيلة لإضفاء المشروعية والاستمرارية للتراتبية الاجتماعية والاقتصادية القائمة. إنهم يدعون أن العلاقة بين مالكي وسائل الاتصال الجماهيري (الرأسماليون) والممارسة اليومية لرجال الاتصال (الإعلاميون) يتوسطها نوع

من الموضوعية الثقافية».

إن ثقافة الموضوعية هذه تسمح بنوع من الاستقلالية ولكنها تتطلب في نفس الوقت بعض الإخلاص لإطار الإجماع على الرأسمالية الليبرالية. وتشير هذه النظرية أيضاً إلى تمركز الاتصال الجماهيري في أيدي بعض الهيئات الكبرى. فالرابطة التنظيمية بين الأقنية التلفزيونية: الصحف، الراديو، دور النشر، هي عملية مألوفة أكثر فأكثر في أيامنا.

وهكذا فإن هنالك تمركزاً للسلطة داخل عالم وسائل الاتصال. إن من نتائج ظاهرة التمرکز هذه الحد من تنوع الآراء والمعلومات المعبر عنها. هذه النظرية المستوحاة من الماركسية، أصبحت واسعة الانتشار في أوساط المنظرين من كافة الاتجاهات. وقد استخدم «غرامشي» «مصطلح الايديولوجية المهيمنة» الذي يركز خلاله تحليله على العوامل الاقتصادية بشكل أقل من تركيزه على الايديولوجية ذاتها وعلى أشكال التعبير عنها والآليات التي تمكنها من البقاء (مع الإجماع الظاهري للطبقة العاملة). إن غرامشي ورفاقه يعطون استقلالاً نسبياً للايديولوجية نسبة إلى الأساس الاقتصادي. فالايديولوجيا لا يتصورها هؤلاء بوصفها مفروضة من الخارج من قبل الطبقة المهيمنة ولكن كتأثير ثقافي لا يمكن تجنبه يفيد في تأويل التجربة الواقعية بطريقة موهمة ولكنها دائمة ونافذة.

وقد ساعدت التحليلات النظرية للعديد من المفكرين الماركسيين وخاصة «التوسير»⁷ و«بولانتراس» على انتشار هذا الاتجاه النقدي. إن تحويل الاهتمام عن العامل الاقتصادي إلى المحددات الايديولوجية للرأسمالية، أكد على أهمية وسائل الاتصال الجماهيري إلى جانب الوسائل والأجهزة الايديولوجية الأخرى. فوق ذلك أثار بعض الانحراف عن التقاليد الماركسية التي ما يزال البعض يتبناها ممن يؤكدون على تفوق العامل الاقتصادي في التحليل. هناك اتجاه مؤثر جداً اليوم المعروف «بالنظرية الثقافية» التي تشكلت في جامعة برمنغهام حول «ستيوارت هال» والتي تأثرت، هي أيضاً، بالفكر الماركسي. تركز هذه

⁷ لويس ألتوسير فيلسوف فرنسي. قام بإعادة قراءة الماركسية وقدم أفكاراً جديدة بصدها. يعتبر من أبرز رموز ما يسمى بالماركسية البنوية. المترجم.

النظرية همها على انتاج الثقافة الجماهيرية وتحاول توضيح المعنى والمكان المخصص للثقافة الجماهيرية في التجربة الثقافية لكل مجتمع. وتمثل إضافات ريمون وليام Rymond William ، ي.ب. تومسون E.P.Thompson وريشارد هوغارت Richard Hoggart الأفكار المحورية التي تشكلت حولها هذه النظرية. ولا يوافق منظرو هذا الاتجاه على تحليل وسائل الاتصال كمسألة مستقلة. إنهم يدعون أن وسائل الاتصال الجماهيري، يجب أن تدرس في إطار علاقتها مع المجموع وليس كظاهرة معزولة. وتحاول هذه النظرية أن تبين كيف تلعب الثقافة الجماهيرية دوراً أساسياً في انتماء العوامل المعارضة إلى المجتمع. يهتم الاتجاه الثقافي بالرسالة وبالجُمهور في آن واحد ويسعى لتوضيح نماذج الاختيار والإجابات الخاصة بوسائل الاتصال عن طريق التحليل المعمق للواقع الاجتماعي المعاش ولمختلف الجماعات الصغيرة في المجتمع.

إن القيم الثقافية المستوردة من بلدان أخرى تحت صيغ التسلية أو تحت أي نوع من الرسائل، من شأنها أن تشوه الثقافة المحلية وخاصة عندما يتعلق الأمر بالدول الصغيرة، أو النامية. إن أسلوب الانتاج في البلد المصدر - لتقنيته وقيمه - يمكن أن يكون أيضاً مصدراً للتأثير في نظام الاتصالات في تلك البلدان. والقيم المصدرة هذه هي قيم الرأسمالية الامبريالية للولايات المتحدة.

إنها تهدف بشكل واع ومقصود لاستعمار وإخضاع البلدان النامية. ويؤكد أحد رواد هذه النظرية، عالم الاجتماع الماركسي هربرت شيلر Herberts chillr، أن الاتصال الجماهيري أداة فعالة في الهيمنة الثقافية على العالم الثالث عن طريق التجمعات المتعددة الجنسيات الهادفة إلى الحصول على أسواق لمنتجاتها وخدماتها. وهذه السياسة الاستغلالية تجتذ حلفاءها لدى الطبقة المهيمنة في بلدان العالم الثالث التي تعاضد مشروع استيراد السلع الاستهلاكية والتقنية الغربية. كما أن الاتحاد السوفييتي يصدر أيضاً منتجات ثقافية - أخبار - أفلام - أفلام ثقافية وثائقية - إلى البلدان الشيوعية. هكذا بإمكاننا أن نتحدث عن الامبريالية الثقافية للقوتين العظميين.

نظرية الحتمية التقنية والاتجاهات الأخرى: La theorie du determinismse technolgique

هنالك اتجاه أصيل يتميز عن الخططين الكبيرين للفكر الوظيفي والنقدي، تقدمه لنا نظرية الحتمية التقنية المرتبطة بمدرسة تورونتو. يدعى مؤسس هذه المدرسة هارولد اينيس Horeld Innis أن التقنية التي تستخدمها وسائل الاتصال المهيمنة في مجتمع ما، تحدد الطريقة التي يفكر فيها الأفراد كما تحدد سلوكهم.

هكذا يشجع الكتاب ووسائل الاتصال المطبوعة الأخرى تفكير «السبب والنتيجة» في المجتمعات التي تظهر فيها المطبعة كتقنية مهيمنة لأنها تفرض شكلاً خطياً للعرض كما تفرض القراءة من الأعلى إلى الأدنى. ويعلق «اينيس» أهمية كبيرة على طبيعة وسائل الاتصال التي يتبناها مجتمع معين. فالامبراطورية الرومانية قد دُعمت بوجود ثقافة مكتوبة ارتكزت إليها المؤسسة البيروقراطية القادرة على إدارة الأقاليم البعيدة. والمطبعة بدورها استطاعت أن تجابه الضغط الذي يمارسه النظام البيروقراطي وشنجعت النزعة القومية والفردية.

ويعضى «ماكلوهان» McLohan بعيداً بنظرية الحتمية التقنية بعرضه للتفسيرات المتعلقة بآثار المطبعة على المجتمع. بينما لم تفلح تنبؤاته في اقناع أهل العلم. مع ذلك كانت أعماله التي تتمتع بأصالة وحسب لا جدال فيهما، حافزاً حاسماً لمن أتى بعده من الباحثين. وقد تطورت الكتابات التي تتناول النتائج الاجتماعية لوسائل الاتصال بالبحث، كما بقي عدد الكتاب المهتمين بهذه الاشكالية كبيراً. ويستنكر الباحثون في النظرية الاجتماعية أن يكون هناك عامل بمفرده - التقنية، الاقتصاد الخ - سبباً وحيداً في السلوك الاجتماعي. مع ذلك، فإن وجهات نظر «اينيس» ترتدي في وقتنا الحاضر طابعاً جدياً، وهناك أعداد متزايدة من المنظرين العاملين في حقل الاتصال، يقبلون الأفكار التي ترى أن الميزات التقنية لوسائل الاتصال يمكن أن تشكل إحدى العوامل الهامة التي يجب أخذها بعين الاعتبار.

إن نظرية «لولب الصمت» التي أعدها ي.نويل - نيومان E.NOelle - Neuman

تنتقل من افتراض أساسي مفاده أن معظم الناس: لأنهم يخشون أن يكونوا في حالة عزلة، يحاولون، عندما يصوغون آراءهم، التماهي مع آراء الآخرين أو يتبعون الرأي العام أي رأي الأكثرية. ووسائل الاتصال تشكل بالنسبة للجمهور المصدر الأساسي للمرجعية في الأخبار. إن وسائل الاتصال هي مصدر الأخبار أو بدقة أكثر إن الصحفيين هم الذين لهم سلطة القرار في تحديد ما هو «هام» بخصوص موضوع معين. والناس الذين يؤيدون وجهة نظر مهيمنة - معلنة في وسائل الاتصال - يتحدثون عنها بكثرة بينما يلوذ من له وجهة نظر مخالفة بالصمت، كي لا يفقد شعبيته. والخطوة التالية في هذه العملية هي أن من يقتسم وجهة النظر المهيمنة ذاتها يتحدثون عنها أكثر فأكثر. وهكذا يصبح الرأي المهيمن مربعاً أكثر فأكثر بينما يحتفظ الآخرون (حتى إذا كانوا أكثر عدداً) بالصمت الذي يتسع باستمرار، وهذه الظاهرة هي التي تدعى «لولب الصمت». عندما يلاحظ فرد أن رأيه ليس معبراً عنه في وسائل الاتصال، فإنه ينسحب ويغادر الفضاء العمومي وينطوي على ذاته في فضائه الخاص. ونويل نيومان لا ترى أن الأفراد يغيرون آرائهم تحت التأثير المباشر لوسائل الاتصال بل هم، كما تقول، يكتفون بإحفاثها. إنها تشدد على ضرورة أن تصور الرأي العام في إطار عملية الاتصال كلها وفي إطار علاقتها مع النظام السياسي وليس كهوية تجريبية وإحصائية قائمة بذاتها. إن فائدة هذه النظرية تكمن في أنها تقيم نوعاً من العلاقة المركبة بين الفرد ووسائل الاتصال والرأي العام. إن مصطلح «وظيفة المفكرة» مرتبط باسم كومبس MC Combs وشو Show اللذين يفترضان أن وظيفة وسائل الاتصال ليس أن تقول ماذا عليهم أن يفكروا ولكن أن تقول لهم بماذا عليهم أن يفكروا. يلعب الاتصال الجماهيري، إذن، دوراً هاماً في مفكرة الأحداث عن طريق جذب اهتمام الناس إلى هذا الحدث أو ذلك. والفرضية التي ينطلقان منها هي التالية: هنالك علاقة بين النظام التراتبي للأحداث التي تعرضها وسائل الاتصال وبين تراتبية الدلالة المرتبطة بهذه المشكلات ذاتها بالنسبة للجمهور والسياسيين.

فوسائل الاتصال تحدد مفكرة الأحداث وتراتبية المشكلات في الوقت ذاته. هذه

الوظيفة في بناء الوقت والأحداث ترتدي أهمية كبيرة لأنها تقود إلى قسر الانتباه إلى بعض المسائل وإبعاده عن مسائل أخرى. إن نظرية «وظيفة المفكرة» تؤكد على أثر وسائل الاتصال على المدى الطويل وعلى أهمية تحليل هذه الظاهرة داخل وسط اجتماعي وسياسي واسع.

أما الأطروحة المركزية في نظرية الثقافة لس.ج. جيربتر G.Gerbner فهي أن التلفزيون وسيلة الاتصال الأكثر قدرة من جميع الوسائل الأخرى، يساعد على خلق التصور الذي يبنيه المتلقي لنفسه عن الواقع. ويعتبر جيربتر التلفزيون كممثل للوضع القائم باعتباره كذلك، ويفيد في إبقاء التصورات التقليدية للعقائد والسلوكيات، أكثر مما يعمل على إضعافها. وهذه الوظائف الثقافية تضمن إشاعة الاستقرار للنماذج الاجتماعية وترسيخ ليس التغيير وإنما مقاومة التغيير. والتلفزيون بهذا المعنى هو وسيلة اتصال من أجل تشريك الأدوار النمطية القائمة. وعضواً من التشديد على التشابه بين التلفزيون ووسائل الاتصال الأخرى، يركز جيربتر على الفرق القائم بينها والذي يعتبره حاسماً.

وبسبب هذا الاختلاف يعتبر البحوث التقليدية غير ناجحة من أجل دراسة التلفزيون وهو يقترح لأجل ذلك طرقاً أكثر ملائمة.

وعلى النقيض مما تم تأكيده في الماضي، تبرهن هذه النظرية أن التلفزيون يمارس تأثيراً على المدى الطويل في تكوين الرأي العام. فغاية أية وسيلة اتصال لا تتحدد في الإخبار والتسلية فقط ولكن أيضاً من خلال عرض «صورة مثالية» للمجتمع، في تشكيل وتطوير المواقف والأذواق والأفضليات لدى الجمهور. إن العالم، كما يقدمه لنا التلفزيون، هو عالم وهمي ليس له إلا علاقة واهية مع الواقع الاجتماعي. ورسالة التلفزيون تختلف في اغفال النقاط الرئيسية عن الحقيقة. هذه الانحرافات تعني قبل كل شيء العائلة، العمل، المسنين، الموت، الثقافة والعنف. وعضواً عن أن يركز الباحث جهده على رسالة واحدة أو برنامج خاص، عليه أن يهتم بمجموع الرسائل المبتوثة لأن المشاهد حتى إذا كان قادراً على البقاء «متيقظاً» حيال برنامج أو برنامجين سرى نفسه مغلوباً أمام هذا السيل من البرامج المتنوعة.

[هذه الأطروحة تستند إلى معطيات تحليل المضمون. ويدعو «حيربتر» العملية التي يستخدمها التلفزيون كي يعرض نسخة موحدة للواقع الاجتماعي «بناء الصورة المهيمنة». إن هذه المنهجية أثبتت، من جهة أخرى، أن بإمكاننا تماماً أن ننسق بين الدراسة الكمية والدراسة الكيفية في تحليل وسائل الاتصال].

مراجع إضافية:

- بال فرانسيس Balle Francis وباديولوجان - غوستاف Padioleau Jean - Gustave (1973) علم اجتماع الأخبار - باريس - لاروس.
- كازانوف جان Cazeneuve Jean (1972) «المجتمع كلي - الحضور - الاتصال والبنث 22» باريس / دينول / غونبير.
- جیدن أنطوني Giddens Antony (1979) المشكلات المركزية في النظرية الاجتماعية، لندن ماكميلان.
- ميرتون روبرت Merton Robert (1966) عناصر النظرية والطريقة الاجتماعية. باريس - بلون.
- مولز أبراهام Moles Abraham (1986) النظرية البنوية للاتصال والمجتمع. باريس، ماسون.
- رايت شارل، Right chrls R. (1986) الاتصال الجماهيري، رؤية اجتماعية - نيويورك - راندون هاوس.